نافذة

الإسلام والحداثة

الحياة عملية تعلّم يمضي الإنسان عمره باحثاً عن الطمأنينة، محاولاً أن يصل إليها لتحقيق أكبر قدر من السعادة، لأن حاله يسعى إلى ذلك، فهذا مطلب يرد على القلب، لكونه جزءاً من هواه، لازم من غير تعمّد ولا اجتلاب ولا طلب في الاكتساب، فالأحوال مواهب تحضر من غير الوجود، والمقامات نصل إليها ببذل الجهود، وصاحب المقام ممكّن في مقامه، ونديم الحقيقة مترقٍ عن مادياته، أما المقامات فهي اجتناب الخطيئة المقصودة وعدم الوّقوع في الطبيعية منها، والترفّع عن صغائر الأمور والصبر على الجلل، إذا ما اعتلى وجوده والرجاء المقرون في العمل والرضا فيما وصلت إليه ذاته، بعدها يرسم طريق طموحه.

أما الأحوال فتكون في القرب من الأحداث والمحبة بالإيمان والرجاء بالاستزادة في إصلاح الذات والشوق مع الحب للعمل والإبداع، ومن دونها لا يكون إنساناً، والأنس بالأنيس والأمان له وبه، بعد الكثير من الخبرة والاختبار اللذين يوصلان بالشك إلى اليقين، وإني لأحمل مرارة في نفسي، وأنا أرى انتشار جماعات إسلامية تعمل على إرجاع المرأة إلى عهود الخدمة الزوجية والطاعة العمياء والإنجاب والحجاب، من أجل أن تظل ساذجة وقاصرة ومنحصرة ومشلولة الحركة تحت مسمى حفظ حصانتها ومنعها من أن تبدع وتهوى، وتحويلها إلى حالة شرف من دون الانتباه إلى شرف الحياة الأكبر، أولئك الذين ينادون بإلغاء القوانين والتشريعات الضامنة لحقوق الإنسان، ليحل محلها الفقه الإسلامي القادم من ذاك الزمن الغابر المستمر.

إلى هؤلاء المتعلقين بأبراج الماضي أقول لهم: إن لم تنفتحوا على الحياة فستبقون ضمن منطقكم الضيّق الفاقد لمرونة الحياة وانسيابيتها التي تدعوكم للتعلم والاجتهاد، كي تكونوا ضمن ركب الإنسانية الذي إن لم تبادروا فسيتجاوزكم، مؤكد هذا، فالعالم وأمام الانفتاح المذهل تحول إلى أسرة واحدة يتأثر بعضها ببعض.

تصارحوا بالعلم تجدوا انكشاف المشاريع الدينية التاريخية أمام العالم العلمي المذهل، الذي نصبح عليه، لنجد أنه لن يعيبه البحث عن عقيدة أو أيديولوجيا جديدة، تتفق مع ما بلغه من نضوج في العقل والإدراك والعلم والقوة، ومن يتعمق في دراسة حالة الأمتين العربية والإسلامية فلن يجد الجواب المطمئن الذي يبحث عنه، والمتجلي في هل ستنهض هذه الأمة، وتأخذ مكانها كقوة مؤثرة علمية وعملية، وتكون مؤثرة في السياسة العالمية؟ والسبب ذاك التصارع بين الماضي والحاضر على الواقع والمستقبل، فهل يكون النهوض على أيادي الجماعات وأئمتها؟ أم على أيادي العلمانيين وآرائهم المقبولة والمرفوضة في آن بحكم المسكون التاريخي؟ وهنا أشفق على نفسي وعلى هذه الأمة في استحضار الجواب، لأن متطلبات الوعي الأولى هي البحث فيما يعترينا من نقص والذهاب إلى إصلاحه قبل السعي لامتلاك القوة، فإصلاح الباني يكون قبل إصلاح البناء.

أين نحن من جوهر الإيمان وصورته الإسلامية التي تمّ تشويهها منذ قرون عديدة؟ ألا يفترض أن يكون هناك اتحاد بين المكون والمتكون؟ فالشفافية تدعو لوحدة الجوهر مع المظهر، أوَلم يساوِ بينه وبين خلقه في طرحه لوساعة كرسيه؟ وأن العبادات ليستَ سوى وسائل لا غايات، وجميع أحكام الإيمان مرنة تخضع في طبيعتها لظروف الزمان والمكان وطبيعة الحوادث وحقيقة الوقائع والواقع ومصالح الناس، أوَلم تحارب الرؤية الإلهية السلطات الدينية عند منعها الاجتهاد بحكم أن لكل إنسان بصيرة؟ أوَلم تُجز تلك الرؤية ترك الفروض إذا كان في أدائها تأخير أو ضرر؟ أوَلم تعلمنا أن الترغيب والترهيب مرتبطان ارتباطاً وثيقاً بصفات الإنسان الخيّرة أو الشريرة، وبما يكتسبه الإنسان أو يقوم به من صلاح أو فساد أو خير أو شر؟

أسأل عمّن قتل التواضع المشرق في نفوس أبناء مجتمعنا وبددنا طول الانطواء والانزواء؟ أوَلم يحن الوقت لنبرز إلى الآفاق، ولنبصر أنفسنا من جديد؟ هل تعلمنا كيف نهتف لجغرافيتنا، ولوطننا صباح مساء؟ وهل تعلمنا الإيمان بمعاني هذا الهتاف: حماة الديار عليكم سلام، وبلاد العرب أوطاني، وسورية سورية؟ ولا ضير أن نستذكر نابليون وقصة حلمه منذ الطفولة من طلبه للمجد، كي يخدم فرنسا إلى أن أصبح قائداً لفرنسا ولبعض من العالم، أليس هذا برأيكم منهجاً يجب أن يستمر ويحافظ عليه بقوة ضمن ضرورات التحديث والتطوير لمنهجنا الفكري وأدبياتنا وأخلاقنا وقيمنا أم ماذا؟

مهم جداً أن نروّض أنفسنا على تقبل النقض وامتلاك أسس الحوار، لأن فيها قيماً إنسانية كبرى وإنباءً على تقدّم واسع في شخصية المجتمع المتكوّن من إنسانه، وإذا أجّلنا نظرنا بين الماضي والحاضر نصل سريعاً إلى أن فلسفة النمو والتقدم تتحرك بقوة إلى الأمام، ولا تنتظر المتوقفين، وهي وحدها القادرة على بعث قيمة الإيمان، وتُحوّل تقهقرنا الممتلئ بالحيرة وتأرُّقنا وقلقنا إلى طمأنينة، وضعفنا إلى قوة، وقسوتنا على بعضنا إلى مرونة، وتعيد لعروبتنا شكلها الحضاري، وللعرب قوة لغتهم، لهاتين الحاضرتين المضافتين على الإيمان، تهيّئان الإرادة المتطورة للمؤمنين، وتقدمان تحديدات ومعاني نوعية لمفردات العصرنة مثل الحرية والمساواة والوطنية، وإذا قدرنا على استيعاب ذلك تمتعت عروبتنا الحاضنة للأديان وطوائفها ومذاهبها والقوميات والإثنيات بالصحة والعافية والقوة، وتهيأ للجميع محاولات للتفكير والتعبير المنطقي والأخلاقي، ومنها يظهر الإنجاز والإبداع المعززان للغة الحضور الدائم بين الحضور.

إلى ماذا نهدف من كل هذا؟ مؤكد إلى أن نكون مواطنين متجذّرين لا رعايا مقلّدين، ولا مريدين للعادات والطقوس، لا مشبوهين متكوّنين تائهين بين المعرفة والثقافة والعلم، أو بين السياسة والدين، ولنذهب للاستثمار في عقولنا، ولا ضير في أن نخطئ ونزيغ لحين، شريطة أن نعكس ذلك على ما ننتمي إليه، وأن نسرع إلى الإصلاح فيه.

الخطأ الذي يثمره تحرير العقل من الخوف خطأ فاضل وأكثر من جيد، لأنه سيتجه للمشاركة الوجدانية التي تضبط حرية الفكر وحرية ما ينتجه، شريطة أن يكون متقبلاً من الآخر، وهذا ليس بعيد المنال أو غير قابل للتحقق، شرط أن نتعلم متى نتحدث، وبأن الواجب الأول هو كيف نسمع، وأن ندخل لنخشى، وقبل أن يقول كل واحد منا أنا، يجب أن يقول نحن، وإذا كان هناك من أنا، فيجب أن تكون أنا المستنيرة الفاضلة، التي تحفّز على إدراك ما نريد وما نحن عليه، تلك التي تتشبّث بالحقوق، وتؤدي إلى النهوض بالواجبات الأخلاقية تجاه العلم والعمل، قبل التحدث بالدين وبالطقوس والآخرة وما فيها.

هنا نصل لنسأل عن المهم في عنواننا، كيف بنا نحل معضلة العلاقة بين الإسلام والحداثة، التي ينبغي أن تكون أكثر من توافقية ومتطورة في طرفيها، والوصول إلى ذلك يدعونا لكسر التشدّد وجسر الهوات التي يتمترس خلفها مريد كل طرف، فسورية تاريخياً رفضت قبل ومع ميلاد السيد المسيح الفكر الروماني الغربي، وقاومت غزواته، كما رفضت فكر الشرق، وامتنعت عن الأخذ بأفكاره، لكنها قبلت الإسلام القادم من الجنوب، وتفاعلت معه، وقدمته إلى العالم أجمع، بتلك اللغة السمحة الراقية المتلئة بالإيمان، بالحياة وإنسانها وخالقها متجانسة معهم، وتألقت بهذا التفاعل الذي أنجب فيها التنوّع، وآثرت في نفسها الحفاظ عليه، لأنها وجدت فيه استمرارها، أي في هذا التنوع الذي أعطى الجميع الحريات الدينية، وبهذا قاومت كل أنواع الاضطهاد الديني، الذي يعتبر المسؤول عن ظهور العنصرية الدينية والحداثوية وتعزيز إيمانها بما تملك، والأخذ بيدها لتحقيق الانتصارات المتتالية، حيث من المؤكد أنها ستوصلها إلى ما تريد صعوداً، بينما يتساقط الآخرون من المعتدين عليها، فالحداثة تعني تقدمها إلى الأمام بما تملك مع الحفاظ على مكوناتها.

د. نبيل طعمة

في المعارض الخارجية هناك من يسأل عن أصالة الفنان

لجينة الأصيل لـ«الوطن»: كي يمّثل الفنان عقل الطفل عليه أن يمتلك الثقة بنفسه ويفكر بجذوره

سوسن صيداوي - ت: طارق السعدوني

كما الموسيقى تفعل فعلها في الهدهدة للطفل كي ينام، كذلك الصورة واللون مع سرد الحكاية، لها فعلها القوي بالتأثير في إطلاق الخيال وتفتيح المدراك مع شعور الإثارة بالفرح واللهو اكتساب المعلومة بحضور الأهل قرب طفلهم في جو عامر من الأمان والمرح مع كل الفائدة. هذا الجو لا يكلّف الأهل إلا بضع دقائق، ولكن هذه الدقائق هي ما يقع عليها الرهان في بناء شخصية طفلنا وتطويرها وتنميتها كي يواكب مسيرته بالحياة ويتحدى الصعاب ويتجاوز كل المراحل، لينجح كما هو الأمل فيه ويبني، لأن هذا واجبه في المستقبل. هذا العالم عالم الأطفال صعب ومعقد ومن يدخل إليه بالكلمة واللحن وأخيراً بالريشة والألوان يجب أن يحافظ على طفولته كي يشاغب معها في استحضار ما يحتاجه –الطفل– وما يشدّه ويأسر تفكيره واهتمامه. ولأنّ الطفل السوري من الأولويات وهو مشروع وطني يجب العمل والتشبيك لأجله على كل الصعد والمستويات الوزارية، حيث تقيم وزارة الثقافة وتتابع اهتمامها عبر مديرية الطفل بكل النشاطات والمساهمات الفاعلة والضرورية لبناء طفلنا، وأخيراً برعايتها الكريمة تمّ افتتاح معرض نتاج أعمال الفنانين المشاركين في ورشة عمل «كيف نرسم كتابا للطفل» بإشراف الفنانة التشكيلية لجينة الأصيل، وعن أهمية هذا المجال سنقف مع آراء ومشاركات وسنورد لكم المزيد.

لجينة الأصيل

في البداية حدثتنا الفنانة التشكيلية لجينة الأصيل وهي المشرفة بالورشة عن المفاتيح التي يجب أن يتملّكها الفنان لينجح في الرسم للأطفال والتأثير فيهم، فتقول: «كي يتمكن الفنان من تمثيل عقل الطفل عليه أن يفكر أولا –وبعمق كبير– في جذوره، وأن يمتلك الثقة بنفسه، ومن بعدها سيكون الأمر أسهل عليه في تطوير مهاراته، وبالتالي كلما سعى إلى أن يقدم أعمالا مشغولة بشغف وحب كبيرين، سيصل شعوره للمتلقي. وهنا لابد لي من القول– ولن أذهب بعيداً– وسأتحدث عن تجاربي في مشواري، بالمشاركة في المعارض الخارجية العربية أو الأجنبية، هناك دائماً من يسأل عن أصالة وانتماء الفنان، بمعنى فنه وإبداعه إلى أي وطن ينتمي، ويسأل عن هويته ومكان ولادته ونشأته وحياته، لأن لوحته تعبر بالنتيجة عن نمط حياته، إذاً هذا الأمر على التحديد هو ما سيحدّ من معاناة طفلنا أمام ضغوطات العولمة ومن منافستها وزحامها، وستتمكن لوحة الطفل من الصمود حتى أمام موجات التقليد والنظر إلى الغربيين بأنهم هم الوجهة التي يجب أن نتّبعها. عندما تجتمع كل تلك الأمور التي ذكرتها سنكون قادرين على الحد من التأثير سلبا على طفلنا، وسنعود إلى عمق أثر اللوحة التي ستكون حينها قادرة على استحواذ اهتمامه والتأثير به انطلاقا من الدور الإيجابي الكبير الذي تلعبه القصص المصورة والمجلات في خيال الطفل، والخصوصية بالعلاقة معه والتي تربطه وخاصة في وقت ما قبل النوم، وأيضاً الأهل لهم علاقة بهذا الموضوع وبطريقة تنمية هذه العلاقة وتمتينها».

وعن تفوق الغرب في الاهتمام بعالم الطفل وبذل الجهود لخلق كل ما يلزم لتحسين مزاجه وتربيته بطريقة أفضل وتتماشى مع التطور، كي يكون هذا المخلوق الصغير قادرا على بناء المستقبل، تضيف الأصيل «لا يمكن مقارنة اهتماماتنا المبذولة بالجهود الكبيرة والمساعي لدى الغرب بهذا المجال، الأخير الذي لدينا أخذ بالنمو والتطور السريع منذ عشرين عاما، لكننا لا نستطيع اللحاق بهم بسرعة، لأننا يجب أن نهتم ليس فقط بتطوير هذا الفن وبالفنانين، بل أيضاً علينا الاهتمام بالكتّاب والمؤلفين، كي يتاح لهذا الفكر نوع من الحرية، فمثلا ليس على الكاتب أن يفرض على الطفل ما يجب على طفلنا الامتثال له، بمعنى أن الكاتب يقدم للأطفال نصوصا تربوية، ولكن في الحقيقة التلقين سيقتل الخيال والإبداع الذي عرفه أجدادنا ونحن نسيناه، فأوروبا أخذت من خيالاتنا ونحن لم نعد مهتمين بالأخير، وللأسف نحن ذاهبون إلى التقويم التربوي. إذاً الغربيون سبّاقون بهذا المجال وتجاوزونا، ونحن نحتاج إلى الوقت الطويل كي نلحق بهم، وخاصة أنني أؤكد أننا نشكك بأصالتنا وهويتنا».

أما عن تقييم الفنانة التشكيلية لجينة الأصيل للورشة وللأعمال التي قدمتها المشاركات، علما أن الباب كان مفتوحا للشباب والشابات، ولكن الأوضاع هي التي حصرت الوجود بالشابات فقط فقد «كان عدد الطالبات المشاركات في الورشة اثنتين وعشرين، وطلبنا منهنّ أربع لوحات مختلفة المواضيع، وعملنا على أكثر من خمسة عشر لونا. المشاركات عملنّ بحب كبير، ولقد فوجئت بحجم الشغف بإبداعهن، ومنهنّ من ستكون لها بصمة في عالم لوحات الأطفال بل هن قادرات على تحقيق الاختلاف بالأفضل الذي في داخلهم، وأخيراً أحب أن أقول للفنانات المشاركات، علينا أن نؤمن بإبداعنا وأن نتمسك بالصبر وببذل العطاء الكبير الممزوج بالحب لأطفالنا مع ثقتنا بموروثنا وهويتنا».

رباب أحمد

من جانبها أكدت رباب أحمد مديرة المركز الثقافي في أبو رمانة، أهمية الدور الثقافي الذي يقوم به المركز بشكل دائم وطوال أيام السنة في بناء الطفل من حيث المدارك والاستيعاب وتنمية الآفاق الفكرية له لكونه لبنة المستقبل «لابد لي من القول إن الطفل هو الركيزة الأساسية لمستقبل سورية القادم، لهذا من واجبنا الاهتمام بالأطفال الذين عاصروا الحرب على سورية بشكل خاص، أو الأطفال الذين يعانون شروخا عائلية بشكل عام. وهذا المعرض حقيقة هو من أهم المعارض التشكيلية لكونه يدرس الوسائل البصرية للارتقاء بالذائقة البصرية للطفل بأسلوب محبب وجذاب، حيث يتكامل مع مضمون القصة أو المجلة أو أي مضمون أدبي، وبالطبع لابد من الإشارة إلى أن الطفل يتلقى المواد بصرياً وهو بمنتهى الذكاء وشديد الملاحظة، فعندما ينتقي قصة أو كتاباً ما، أول ما يشدّه هو الغلاف وبالتالي هنا استحوذ الفنان واستقطب اهتمام الطفل. إذاً جداً مهم دراسة وسيلة التواصل مع الطفل وهي من السهل الممتنع، ولكن كادر الورشة هو كادر مهم ومحترف وعلى الخصوص الأستاذة لجنية الأصيل، التي هي رائدة بهذا المجال وتخصصت به على الرغم من إمكانياتها الرائعة باللوحة التشكيلية».

وفي ختام الحديث أشارت مديرة المركز الثقافي في أبو رمانة إلى الدور الجدّي الذي يقدمه المركز في دعم ثقافة الأطفال وتطوير ذائقتهم البصرية وحتى السمعية، من خلال الحصص الموسيقية أو التشكيلية المجانية التي تقدم أسبوعيا، إضافة إلى النشاطات المستمرة على مدار العام، بتقديم المعارض الخاصة بالأطفال والتي هم أيضاً مشاركون بها.

غادة حداد

في حين أخبرتنا غادة حداد الفنانة التشكيلية عن مشاركتها في الورشة مشيرة إلى متعتها الكبيرة في التعامل مع الطفل، مع تأكيد ضرورة عدم السيطرة على الطفل بل منحه مساحة من الحرية كي ينطلق بخياله ويبدع خلال نشأته ونموه «في هذا الزمن هناك تحدّ كبير من أجل الأطفال ومعهم، ولابد لي من الإشارة إلى أن هذه الورشة هي الورشة الثانية التي أشارك بها مع وزارة ثقافة الطفل ومع الأستاذة لجينة الأصيل، وأنا منذ عام ٢٠١٢ أعلّم الأطفال في مرسمي الخاص، الرسم والأعمال اليديوية، وهنا التحدي الأكبر بأن نسعى لشدّ الطفل للعمل معنا، والأصعب بأن نصبح بمستوى تفكير الأطفال كي يكونوا معنا، وعلينا أن نقترب منهم ونقنعهم كي يقتربوا منا بعيداً عن المغريات الأخرى من عصرنة وتكنولوجيا مع احترام روحه وتفكيره وبراءته، في علاقتي مع الأطفال ليس هناك حدود لعطاء، والطفل الموهوب ملكته تظهر مع الوقت مع احترام رغبته». وعن مشاركتها تضيف إنها قامت بإحدى اللوحات بتحوير السنجاب لكونه من الحيوانات النشطة والتي اشتغلت عليها كرتونيا بشكل كبير، كما قامت بتحوير بعض القصائد التي قدمها أبناء الشهداء، من خلال تحوير الكلمات إلى لوحة صوّرت فيها طفلا يحكي عن بلده.

عدوية ديوب

بينما حدثتنا الفنانة التشكيلية عدوية ديوب عن مشاركتها في الورشة وهي حاصلة على ماجستير فنون جميلة اختصاص غرافيك من أوكرانيا، فتقول «عملت على تحوير الحصان كي يكون قريبا من الواقع ومن ثم كي يتماشى مع الكرتون، واخترته بالذات لما يعني من أصالة. اعتمدت على تقنية الحفر، وبالتالي هناك عدد من الطبقات التي شكلت سماكات واعتمدت على الخط بالدرجة الأولى، على حين الموضوع الثاني اعتمد في تقنيته على طرح اللون الأسود، وهذا الأمر بحد ذاته تحدّ، فالأطفال معتادون على الألوان الزاهية. وبالتالي غامرت وتحديت نفسي من خلال هذا العمل لما فيه من مراعاة للون الداكن مع درجة الضوء وحساسية الموضوع. وأخيراً أنا أرى أنني كي أكون قادرة على إقناع الطفل يجب أن يقنع عملي نفسي أولا، ومن خلاله دفعهم إلى الخيال والتأمل ونرفع من ذائقة الأطفال البصرية وندفعهم باتجاه القيم والانتماء وحب العمل والإنسان».

سهيلة قباني

وأيضاً من الشابات المشاركات في الورشة توقفنا مع سهيلة قباني الحاصلة على إجازة في الاقتصاد من جامعة دمشق ودرست الرسم في معهد أدهم إسماعيل للفنون التشكيلية، والتي قالت: «منذ أن كنت طفلة صغيرة وأنا أحب الرسم، وعلى الرغم من أنني درست الاقتصاد إلا أنني استمتع كثيراً بالرسم والألوان. برأيي عندما يكون المرء محوّطاً بالبراءة وفرح الأطفال فهو قادر على التطور في الرسم، وفي الورشة أحببت أن اختص بهذا النوع من الرسم الذي لم أتعلمه بمكان آخر، وسوف أختص به وعندي أمل أن تنشر أعمالي ولوحاتي في كتب الأطفال وجميع مطبوعاتهم».

أهمية قراءة الفيلم التجاري بأبعاده العلمية

السينما ليست فكراً وفناً فحسب بل صناعة وتجارة

وائل العدس

خلال سنوات طويلة، تكفلت المؤسسة العامة للسينما التابعة لوزارة الثقافة بمعظم الإنتاجات السينمائية السورية، طارحة في كل عام عدداً من الأفلام ضمن الإمكانات المتاحة، محققة في كثير من الأحيان جوائز وتكريمات في مهرجانات عربية وأجنبية.

وتلتزم هذه المؤسسة بخط معين يحمل رسالة ثقافية لا يمكن الحياد عنه بعيداً عن الأفلام التجارية وحسابات شباك التذاكر، وخاصة أننا أساساً نعاني من شح صالات العرض، ما ينعكس سلباً على الإيرادات المالية المتوقعة.

لكن كثيرون يؤيدون السينما التجارية على اعتبار أنها رائجة في العالم أجمع، بشرط الارتقاء بمضمونها وفكرها.

فن استثماري

في عمق التجربة السينمائية العالمية، ولدت صناعة الفيلم التجاري، لترتقي بفن استثماري، يؤمن بمبدأ جمالية الصورة، واستحقاقها في تشكيل رأس مال متجدد يثري الساحة، ويضمن تنوعها واستمرارها.

ولكن بمجرد إقرار بعض منتجيها تجريدها من القيمة الإنسانية، والاستحقاق الثقافي، والأبعاد الابتكارية في تجسيد الخيال والواقع، مستهدفين تحصيل رقم لشباك التذاكر، بأقل الإمكانات وأسهل الطرق، على مستوى المضمون الفكري للفيلم والكيفية في طرحة، ممكن أن يتسببوا في تشويه عام لمفردة الصناعة التجارية في عالم السينما، وتصبح تحمل منحنى آخر، يخل بموازين ومعايير شاشة الفن السابع.

لكن من المعروف أن للسينما شقين، الأول فني وهو الخاص بالسيناريو والموضوع والمضمون والدراما التي يحويها الفيلم وكذلك الصورة وشريط الصوت والمؤثرات وكل عناصر الإخراج، والثاني الشق الاقتصادي أو التجاري للفيلم ويشمل تسويق الفيلم وتوزيعه واستخدامه كسلعة تجارية في سوق العرض والتوزيع، ويهدف هذا الشق إلى تحقيق الأرباح والمكاسب المادية للمنتج أو القائمين على العمل السينمائي.

وباعتبار أن السينما سلعة تجارية يهدف المنتج إلى توزيعها وعرضها، وبالتالي استرداد التكاليف وتحقيق عائد مادي ولو بسيطاً، فإن فن السينما يتأثر تأثيراً مباشرة بالحالة الاقتصادية للمجتمع.

ولأن السينما ليست وسيلة ترفيه وتسلية للجمهور فقط وإنما مصدر رزق ولقمة عيش لآلاف العاملين فيها، وبتوقف صناعة الأفلام يقع هؤلاء العاملين بهذه الصناعة في قائمة العاطلين عن العمل نتيجة اختفاء المنتجين وصناع السينما أثناء هذه الظروف.

مرحلة تقييمية

يجب إيلاء أهمية لمسألة قراءة الفيلم التجاري بأبعاده العلمية، المرتبطة بمفاهيم السوق ما يجعلنا أكثر قدرة على التصنيف، والمرور بالمرحلة التقييمية للفيلم بموضوعية أكثر، فإنه بشكل عام ينظر للفيلم التجاري، بشيء من التسطيح في مجمله، وأنه عمل لا يليق بمستويات المشاهدة النقدية أو المتابعة النوعية، وأنه فقط صناعة تهدف إلى الربحية، من دون اشتغال حقيقي بالمعايير العامة. وهذا يعتبر جانباً واحداً، للعمل التجاري في السينما، انتشر بشكل مفرط في السنوات الأخيرة، وبمجرد مشاهدتنا له، نعلم أنه تجاري بحت.

ولكن في الجهة الأخرى، فإن هناك مجموعة من الإنتاجات التجارية تحمل بعداً، مصنوعة بشكل احترافي ومختلف، مطبقاً عليها معايير التجارة في توازي الكفاءة والجودة، مع مسألة البيع والشراء، كمردود استثماري طبيعي، لتحقيق استمرارية إنتاجية، وضمان ازدهار الصناعة وتنوعها.

أبعاد احترافية

إن العمل اليوم على تسويق الفيلم وترويجه بأبعاد احترافية، يصنع حضوراً نوعياً للعديد من الإنتاجات في صالات العرض المحلية، حيث إن الفيلم السوري يعتبر جزءاً من المنظومة، والترويج له بمستوى الأفلام العالمية، يحقق إقبالاً جماهيرياً، والتقييم في النهاية يبقى للجمهور، فإتاحة فرصة العرض، ومنهجية التسويق، أسس عالمية تتبناها جميع الشركات المتخصصة في السينما التجارية.

كما أن الجمهور متعطش لإنتاجات السينما السورية، لكن هناك من يروج عكس ذلك، من دون إحصائيات ميدانية، وقراءات فعلية لتفاعل الجمهور، لكن السؤال ليس في ماهية التجربة، بل في مدى استيعاب الخطة التسويقية والتبني الفعلي للفيلم عبر صالات العرض المحلية القليلة.

المنتجون التجار

درجت العادة في بعض الدول العربية أن يستغل بعض المنتجين ممن يسمون «بالمنتجين التجار» الظروف ويصطادون في الماء العكر بإنتاج أفلام رخيصة هابطة تدعى«أفلام المقاولات»، تلك النوعية لا تهتم بمضمون ولا بحبكة الفيلم ولا بجودته. وتبدأ في جذب العاملين المهرة لتركيب فيلم يحتوي على عناصر الجذب للجمهور البسيط من عري مبتذل وألفاظ خادشة وبعض الأغاني الشعبية والمواقف السخيفة التي تسمى حسب وصفهم «كوميديا الموقف»، هذه النوعية من الأفلام المنخفضة التكاليف تعرض في دور العرض من دون منافسة لذلك تستحوذ على شباك التذاكر ما يعود على المنتج بمكسب مادي ضخم.

هذه الأفلام موجهة مباشرة لفئات معينة لتخاطب غرائزهم مباشرة من دون تدخل العقل وبالتالي تؤثر فيهم ويتأثرون بها وتنهار القيم والأخلاقيات العامة لدى الشباب وطلاب المدارس المراهقين.

والسؤال المطروح هناك: هل هذا المنتج رجل صالح في مجتمعه لأنه أنعش هذه الصناعة؟ أم إنه فاسد لأنه يبني مكاسبه المادية على حساب أخلاقيات المهنة ويستغل ظروف مجتمعه في توجيه أفلامه للشباب ويدمرهم دون وعي وإدراك؟! لأن السينما من المفترض أن تساهم بشكل كبير في تشكيل وعي ووجدان الأجيال وخاصة الصغيرة.

تنويهات

– تعد صناعة السينما من أبرز الصناعات التي تدعم الاقتصاديات في العالم، من حيث توفير فرص العمل، وجذب استثمارات أجنبية، وبالتالي تمثل السوق السينمائية في بعض الدول مورداً اقتصادياً مهماً.

– السينما ليست فكر وفن فحسب، ولكنها بالدرجة الأولى صناعة وتجارة.

– يعتبر الإنتاج هو الحجر الأساسي الذي تقوم عليه صناعة السينما والمسيطر على عملية الإنتاج هو الذي يحدد هوية هذه السينما.

– الذي يصنع السينما ليس الفنان كما يعتقد الأغلبية، بل هو التاجر صاحب رأس المال القادر على توصيلها للمتفرج.

– إن وجود صالات العرض مسألة ضرورية لنجاح أي سينما، وأي عجلة إنتاج، لابد لها من سوق للتوزيع والتسويق.

– السينما كاستثمار تحقق أرباحاً خيالية إذا آمن بها المنتج، الذي يرصد ميزانيات بأرقام فلكية، لأنه يعلم جيداً بأن ثمة أرباحاً طائلة سيجنيها أفلامه.